عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين محمد

ألف ليلة وليلة

بقلم الدكتور

علي شلق

بيروت ـ لبنان

هذا الرقم !

العدد رمز ، مصنف على رتبة ، بل هو جوهر .

درج المفكرون على اعتبار العدد رمزاً لما ينتسب الى الرقمية منذ الصفر حتى نهاية اللانهايات ، تلك التي عبر عنها الرياضيون العرب بالكرّات ، والغربيون ، بالترليون والكاترليون والبليون .

بهذا العدد يتصنف كل موجود ، في رتبة من مراتب الوجود ، غير ان الفيلسوف اليوناني « فيثاغورث » يجد في العدد جوهر المعدود ، وانه بعد مذاهب طاليس ، وديموقريطس ، وهرقليطس ، وسواهم من الماديين الايليين ، اعلن ان الموجودات تتألف من اعداد ، وقد ذكر سابقوه انها تتألف تارة من الماء ، وتارة من النار ، او من العناصر الاربعة : النار ، الماء ، الهواء ، التراب . وهل يجيء هذا العدد عرضاً ، او جوهراً ؟

العدد من حيث كونه رقماً او رتبة ، فهو عرض ، أما من حيث تألفه من عناصر ، أو وحدات ، تشكل مجموع كيانه فهو جوهر ، ومن هنا تبدأ الفلسفة مرحلة جديدة مهدت لسقراط وافلاطون وارسطو ومن هنا اكتسب العدد قيمته فوق ماللحرف ، والنوطة ، وسواهما من الرموز ، ووسائل الابانة .

العدد في الاسلام

عرف المسلمون الاعداد كما عرفها سواهم من شعوب المدنيات ، وتميزوا بانهم مكتشفو الصفر الذي هو عدد متأهب للبدء ، ومخترعو علم الجبر الذى قفز بالرياضيات شوطاً بعيداً في مضمار البحث والكشف والتخطيط ، وحسبنا ان نقف على قيمة العدد في فكر الكيميائي ، الصوفي ، « جابر بن حيان » ، صاحب فكرة : « الاسم عين المسمى » وهو الذى احل العدد محل الروح أو الهوية الداخلية ، ملتفتاً الى «فيثاغورث» « وهرمس » موطّناً للسوريالية التي رسم مذهبها « اندره بروتون » اليوم ؛ وعنى بها ابن خلدون عناية كبرى في مقدمته ، الثلث الاخير .

وتجيء حكايات « شهرزاد وشهريار » بالعربية ممهورة بهذا الرقم « الف ليلة وليلة » مسبوقة بمثل نسقه ، منخطية كل ما عداه ، وذلك على سبيل الايقاع من جهة ؛ وعلى سبيل التمام من جهة اخرى ؛ فالرقم « الف » محطة كمية ، ونفسية ، لدى العربي ، إذ ان المئة كانت اكثر ما يدور العربي في فلكها في طرق معيشته المختلفة ، فحسبه من الابل مئة ومن الخيل مئة ، ومن القطع النقدية مئة ، أما ساعة يزيد ، ويتجاوز فالالف مدار احلامه ؛ وتمام شؤونه .

لعل المئة في الاصل من الماء الذى به الحياة ، والالف من الالفة ، والتأليف ، والمادة لهذه

WWW.ATTAWEEL.COM

اللفظة تفيد الجمع ، قل مثل ذلك في الالف الحرف الاول من الابجدية ، حيث ترمز الى ما يتبعها من ابنائها الحروف الاخرى ، اذ هي في الدرجة الاولى رمز للصوت الاول ا.ا.ا. وهو يخرج من فتحة الفم ، منطلق من سقف الحلق ، ولذا عده علماء التجويد من الحروف الحلقية ، وهي ذات مزاج حاد ، حار ، عاطفي .

الى ذلك ، قرنت الالف بالباء ، واصبح هذا الاقتران عنوانا على الابجدية كلها ، وهي تشكل المرحلة المقطعية من النطق « اب » مشيرة الى الرمز الاقوى والاعلى للعائلة ، وارتسمت الالف في معظم لغات العالم منتصبة إشارة الى علامة الذكورة المبدعة ، والباء مسطحة للاشارة الى الانوثة .

بقي ان ندرك السر في تسمية العربي حكايات شهرزاد لشهريار تسمية عددية لها مغزيان : الاول في كونها الفا كناية عن التمام ، والثانية في إضافة ليلة ، او العدد الواحد الى الالف ، فهل ان ذلك جاء لتمكين الايقاع من السمع ، او للمبالغة في التمام والكمال ، او ان بين الالف المرسومة كنهاية ، ومحطة ، جسرا ينقل من حال الى حال ، وعهد الى عهد ؟

ثم لماذا اورد اللفظ مؤنثا فقال ليلة بدل ليل او سمر ، او هزيع ، او ما شاكل ذلك ؟ ويهمنا ما في التانيث ذاته من الولادة ، والتولد ، والخصب ، وهل ان التسمية جاءت على لسان شهرزاد وهذا من حقها ؟ أم ان التسمية من صنع المؤلف الذي راعى في التسمية ناحية الانوثة ؟

الى ذلك فإن من شأن العربي ان يجيب على طالب العون منه بقوله : « لك ذلك وفوقه » . « لك ذلك وكرامة » . « لك ذلك وزيادة » « لك ذلك وواحدة . » او اكثر إلى ما هنالك من صيغ القبول وتمكينه والتزيد فيه .

* ● *

ثم اننا إذا رأينا في هذه التسمية العددية نوجدناها تشير الى ثلاث سنوات ، وتزيد ، وان الليلة لا تنفصل عن النهار من حيث انها به تشكل اليوم ، فهي نصفه والنهار نصف آخر ، وهذه المدة كافية لانجاب نسل ، وتبديل احوال ، وتركيز امور جديدة ، ولعل الرقم الف وليلة ، يشير الى عدد يتناول النساء اللواتي صرعهن شهريار ، وان الليلة الواحدة الاخيرة تميزت عنهن شهرزاد عن باقي النساء .

اليس معقولا ان تكون ازمة الفاجعة دامت الف يوم ، وتسميتها بالليلة نصف اليوم نظرا الى ظروف الحزن الاسود ، والظلام المخيم على النسوة الشهريارات وبؤسهن ، وبؤس عائلاتهن ، وان تلك الليلة وحدها بعد الالف كانت مفتاح الفجر والخلاص ؟

* ● *

اخيرا ، عصر الف ليلة وليلة ، عصر عتمات ، واشباح ، وتخاريف ، الى جانب كونه عصر رحلات . وترف يقابله بؤس ، وشموخ مفاجيء قد يؤدي الى سقوط فاجع ، وهذا ما يدفع الى الاستعانة بالصور ، والاحلام ، والماورائيات ، ويؤدي الى عناية كبرى بالطلسمات ، والالغاز ، خاصة الارقام ، والحروف ، والسيميائيات ، تلك التي عرفها المجتمع الاسلامي قبل ذلك بكثير . وذا مما يميل بنا الى ان التسمية رمز ، وليست رقما مقصورا لذاته ، الا اذا ارحنا انفسنا من عناء الافتراض ، والتمحل وهذا ليس في يد من تعود على البحث والايغال ، واخذنا التسمية على ظاهرها ، لنقر مع المؤلف ان شهرزاد بقيت تخرف شهريار الف ليلة وليلة ، اي ما يزيد على ثلاث سنوات ، وانها نجحت كزوجة ، وحبيبة فاتنة ، وام ، ومخلصة بنات جنسها من موت متدرج ، وانها كانت من الذكاء بحيث اعتمدت على عامل الزمن الذي به انست شهريار حقده على بنات جنسها ، وتعهدت في نفسه شجرة الحب والثقة ، إلى أن مدت غصونها ، ومنحت براعمها زهرا وثمرا .

الليـــل

الليل عابس الملامح ، غريق في عتمة ذاته ، يسكن الخفاء ليفتح كوة الصباح من بصيرته العميقة .

ما فيه من سر ، ووحشة ، وستر ، يجعله موضوع الغز ، والذكرى ، والتامل ، والتآمر . الليل فيلسوف الزمن ، به تكتمل وتتنوع مناسج الرؤيا ، وملاءات الخيال ، مثلما ان النهار مركبة الشمس ذات الحوافر اللاهبة ، والرئين الاشقر .

فاي بحر لجّي ، امواجه تهدر صمتا ، وتبوح بافصح سور ، ينبع منه خمر اسود يكحل جفون العالم ، ويمنح النشوة للأشياء ، فاذا بكل ما فيه تجدد ، يطفيء الظمأ ، وينفي الرتابة ، على غير مترسل للوجود !!!

* ● *

في الليل جرت حوادث « الف ليلة وليلة » هذا الكتاب الذي عد من الصف الاول في مكتبة العالم . محور شخوصه المنازين قبل الاسلام . عهد تاليفه بعد الاسلام وفي مجرى عهود الانحطاط السياسي بعد سقوط بغداد وآن اشرقت كواكب الادب الشعبي ، والموسوعات، والمطولات الادبية، والعلمية .

ـ من هو مؤلفه ؟

ـ سؤال جوابه الصمت ، وربما كانت الاسئلة التي من هذا النسيج تحمل اجوبتها فيها ، او انها اسئلة غنية بالايحاء، تترك مجال الشوق منفتحا، فكل إجابة تجيىء ارخص من السؤال الذي لا تطفىء رياحها وهجه السحري ، وايقاعه الفاتن ، كانه سر من اسرار الحياة ، وملامح الغيوب .

احدية المؤلف

كاد الكاتبون عن الف ليلة وليلة يجمعون بعربيهم ، واعجميهم ، على ان المشتركين في تاليفه كثيرون ، وهذا ضرب من العجز عن فهم السر الادبي في المؤلف ، وهامشية في الدراسة ، نجد اننا ملزمون ـ بعد الروية ، والبحث ، ان « الف ليلة وليلة » كتاب عربي ، إسلامي ، لمؤلف واحد وان ذلك المؤلف غني الموهبة ، بعيد مطارح الخيال ، كثيف التجارب في الأيام والليالي ، ذو ولع بالتراث العربي القصصي ، وسواه من مقابس التاريخ الادبي العام خاصة ادب الفرس والهند ، واليونان ، وما اختلج في المنطقة العربية من موج يحتضن بعضه بعضاً بحكايات واقاصيص من متنوع ذهنيات الشعوب .

كتاب الف ليلة وليلة ذو المجلدات الاربعة بالعربية له مؤلف واحد ، واسلوب متناغم منسق مرسوم ، حامت حوله الاوهام مثلما حامت حول « هومير » مؤلف ملحمتي الالياذة والاوذيسة .

الشبه بين الاثرين : العربي واليوناني قائم، كما ان الشكوك حول التاليف والمؤلف تكاد تكون منسوجة على نول واحد ، وهذا يضفي على الاثرين سرابية خيال فياض الالوان .

* ● *

مما يرسخ الاحدية بصدد تاليف هذا الكتاب الممتع ، انه جاء امتدادا لخط طويل عريض في سياق القصص المنطلق من مناخ الشعب ، وانه منسوق على شبه بين الملامح يلتفت الى ما سبق ، ماحيا كل قول سواه دعت اليه عوامل الغفلة او العصبية ، او الرغبة في لبس ثوب المكتشف او العائد بالجديد .

فالعرب عرفوا من قبل بسنوات عدة كتابا على غرار الف ليلة وليلة ، وبالايقاع الموسيقي العددي لتسمية ذاتها ، الشيء الذي يشير إلى مزاج خاص باستخدام العددية الفيثاغورية ، ورموزها التي سحرت كثيرين من اقطاب الفكر العربي ، من طراز ابن خلدون ، وقبله جابر بن حيان .

« الف عبد وعبد » و «الف جارية وجارية» كتابان من جملة كتب سبقت الف ليلة وليلة ، حسب الروايات العربية . واحصائيات « ليتمان Littman » .

التسمية جارية على النغم الموسيقي ، والايقاع العددي ، في تناغم الحروف والالفاظ ، إذ ان المؤلفين العرب راعوا الناحية الجمالية في التسمية ، وهم ولوعون بذلك ولوعهم بالأرقام ، وقد جاء القياس مطابقاً لدى تسمية الف ليلة وليلة اقتباساً مما سلف .

ولكي نمنع القارىء بمضحكات اصحاب الاحاجي ، والتكهنات بخصوص جسد الكتاب ومؤلفه ، نعرض له طائفة منها . « ليتمان » ذاته ينسب التسمية الى واضع تركي . و «الشرواني» في تقدمته للطبعة الفارسية يزعم ان مؤلفه رجل سوري لا فارسي ليلقى في الذهن صدى لتجرد ، وابعد عن العصبية ، وذا يزهينا اذ ربما كان هذا المؤلف حسب رايه سوريا من لبنان ، واللبنانيون مشهورون بكثرة «الاسفار ، وبعد مطارح الخيال ، وهم من سكان شاطىء المتوسط، بحر الحضارات القديمة الخصبة ، ولكي يرينا هذا « الشرواني » سعة آفاقه يتصور ان الطبعة السورية قد زيد فيها ، ليناقس الغربي دسكاي Descay في هذا المضمار .

اما « سكوت Scott » فيعلن، وحسب ما يحلو له ، ان مؤلفه اكثر من واحد ، والاغرب ذلك ان « لنجلر » يقول : إن مؤلف هذه القصص هندي ، واني لاعجب كيف انه لم يضف : او صيني ، او اوسترالي او ... الى آخر الاوبات .

ويعتمد هؤلاء الغربيون الذين فاتهم الفهم الصحيح ، وادراك سر التناغم في السبك العربي، على قولة للمسعودي في مروج الذهب ج٤ ص٨٩ الذي شكك ، وعدد ، مؤلفي الكتاب ، والمسعودي من عرفناه مخترفاً في معظم ما سجل حول مشاهداته ، واسفاره في مروج الذهب ، وان كان

قد فتح باب الادب الرحلي ، وسن سنة شريفة ، حلوة ، ممتعة لكتاب الرحلات ، بما وردنا من ادبهم الانساني ، الكوني ، ذي الانطباعات العذبة، الطفلة احيانا .

الى جانب هؤلاء المشككين : الاحجوبين ، يؤكد الاب صالحاني انيسوعي ان مؤلف الكتاب عربي ، انطلاقا من آراء الجهشياري ، وابن النديم .

بينما يعتمد « مكدونالد » Macdonald على الجهشياري وابن النديم ، وسواهما ، ليعلن ان مؤلف الكتاب هذه المرة فارسي ، لوجود اصوله في التسمية التالية : « هزار افسانه » ، وبشايعه كثيرون في هذا المجال .

لمحة من التاريخ

بعد ، اي شيء يكون كتاب الف ليلة وليلة ؟

ـ اول من ذكر كتاب الف ليلة وليلة من ادباء العرب ، ومؤرخيهم الرحالين ، المسعودي ، وهو من اعيان القرن الرابع الهجري ، بعد عصر الدويلات ، وقفاه ابن النديم في « الفهرست » .

فمتى ظهر هذا المؤلف العظيم الى الوجود ؟

اني القرن الثالث الهجري ، مطلعه ، منتصفه ، ام ختامه ؟ او انه لمع في مطال القرن الرابع ؟ علما بان المسعودي عاش في اطار سنة ٣٣٦ هجرية ، وهو يتحدث عن الكتاب حديثا يشير الى بعد مصدره وزمنه بهذه العبارة :

« وهو خبر الملك ، والوزير ، وابنته ، وجاريتها دينارزاد ... »

هنا يبدو الخلاف واضحا بين رواية المسعودي ، وبين نص الكتاب الذي يطلق على الفتاة اسم « دنيازاد » وانها اخت « شهرزاد » لا جاريتها .

الظاهر ان الكتاب الف بعد عصر هرون الرشيد ، المحتضن عصر كليلة ودمنة السلفي ، وان الرشيد سجل انتصار العنصر الخلافي العربي على العنصر الوزاري الفارسي ، بينما انساق بعده عهد الامين الذي قتل بتدبير اعجمي ليستعين اخوه المأمون بالسيوف التي مهدت للسفاح والمنصور ، واجرى المأمون في خلافته ، وهو صهر الوزير الحسن بن سهل الفارسي تعويضا عن قتل الرشيد وزراءه البرامكة .

اليس منطقيا ان يكون الكتاب صدى عنوان ادبي عربي يستطيل ادبيا استطالة العرب سياسيا ؟

لعل ظهور ادب الموالي منذ بشار بن برد ، وابن المقفع ، وابان اللاحقي ، كان مما يلقي شبهة حول نسبة الكتاب الى مؤلف فارسي ، خاصة انه مطبوع بملامحهم ، ويدور حول بطلين هما « شهرزاد وشهريار » وإن الآداب القديمة التي خلدت على مر العصور وردتنا في صيغ : الملحمة، المسرحية ، القصص بانواعها .

وهنا لابد من سؤال ينبع من جو البطلين اللذين تدور حولهما حوادث الكتاب ، وهو : الا يمكن ان يجيء تأليف هذا الكتاب صدى لكليلة ودمنة ، كرد عربي متخايل في الامتاع ، والتخريف خاصة انه يقبس بعض نماذج كليلة ودمنة ؟ ويعارض اثر ابن المقفع باللون العربي الاسلامي الصادق ؟

على ان ادب ابن المقفع المترجم على الاغلب، خلا كليلة ودمنة لا يبلغ مدى ادب الجاحظ العربي الاصل ولا يزيد على ما عرفنا من ادب المقامات ، وما على شاكلته من طراز ادب ابي حيان التوحيدي في المقابسات ، والامتاع والمؤانسة ، فالتحدي العربي إذن اصيل فعال .

ثم اذا كان كتاب الف ليلة وليلة ذا منطلق فارسي ، فهل هذا وحده كاف لتثبيته في الفارسية ؟ علما بان مئات ، بل الاف الكتاب يضعون لمؤلفاتهم تسميات غريبة عن لغتهم ، ومناخاتهم ، في كل العصور . مثل ذلك ان « كليلة ودمنة » ذو اصول هندية ، كأصول الف ليلة وليلة الفارسية ، فهل ان هذا يجعل من كتاب ابن المقفع كتابا هنديا ؟

هذا مالا يقول به منصف .

إن الذي يثبت ولادة الف ليلة وليلة بعد العصر العباسي الرابع ، سيطرة اسمي بغداد والبصرة ، على معظم مواقف الكتاب ، وهما آنذاك كانتا في اوج عزهما الحضاري ، وكثافتهما البشرية ، ولكي نصل الى ما نهدف اليه بالسياق المنطقي ، نورد ما قاله ابن النديم في الفهرست ص ٣٠٤ من طبعة ليبزك سنة ١٨٧١ لدى تحدثه عن اصل « هزار افسانه » اي الف خرافة :

« ان ملكا من الملوك كان اذا تزوج امراة وبات معها ليلة قتلها من الغد ؛ فلما تزوج بجارية من اولاد الملوك ، لها عقل ودراية ، يقال لها

« شهرزاد » ابتدأت تخرفه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها في الليلة التالية عن إتمام حديثها في الليلة السابقة، الى ان رزقت منه ولدا ، اظهرته للملك، واوفقته على حيلتها وتدبيرها ، وبراعتها في الانهاء والتشويق فاستعقلها ، ومال قلبه اليها فاستبقاها .» من هنا يبدو أن الكتاب ينطلق من مناخ فارسي ، وأن مؤلفه يمكن ان يكون بصريا او بغداديا .

وقد يتراءى لبعض الباحثين ان مؤلف الكتاب مسيحي ، او يهودي ، نظرا إلى ان قصاصين بارعين من المسيحيين واليهود اغنوا التراث العربي الاسلامي بالقصص المستمدة من التوراة والانجيل ، من طراز « وهب بن منبه » و « كعب الاحبار » .

على ان الروافد اليونانية وسواها من اصداء الوثنية ، تصب في بحر هذا الكتاب ، فهل من اندواعي ايضا أن يزعم زاعم ان مؤلفه يوناني ؟

ومن الزاعمين من يرى ان المسلمين يحرمون التحدث بالخرافات ، وأن بعضهم كان يتوقع إصابة المتحدث بشر عظيم، ويغفل هؤلاء الزاعمون من المستشرقين عن ان العرب عرفوا التخريف قبل الاسلام وعرفوه في مجرى الاسلام ، وليست قصيدة ذات القفا للنابغة ، واخيلة عبقر ، والاحقاف ، ويبرين ، ثم مادار في فلك التصور وإن جاء في كتاب اليقين ، القرآن الكريم ، عن احوال الجنة والنار ، والجن ، والصور الادبية التي تبز ما عرفنا لهوميروس ، وفيرجيل ، وفياسا وثاليكي ، ثم ما شاع بعد ذلك عن اقاصيص العشق ، وامور المقامات ، واخبار الشياطين ، وكل رئي ، وطيف او شبح ، مما يتسامح به لدى الغافلين ، ويبين مقدار اوهامهم .

اليس هذا كافيا لتتنفيه آراء هؤلاء ؟

روافد الكتاب

ازاء ذلك فما هي اشهر الروافد في الف ليلة وليلة ؟

جواباً ، يجد الباحث في دوحته جذورا هندية ، فارسية ، يونانية ، عراقية ، مصرية ، شامية ، يهودية ، مسيحية ، وتوافح متنوعة ، تهب من هنا ، وهنالك . على ان مؤلفي كتاب « قصة الادب في العالم » الدكتورين احمد امين ، وزكي نجيب محمود ، يقرران في مؤلفهما طبعة القاهرة سنة ١٩٤٣ صفحة ٤٢٢ ما يلي :

« فكان من القصص الشعبي « الف ليلة وليلة » ثم ظلت تنمو مع الزمن . وان قصة السندباد البحري لم تكن ملحقة بالف ليلة وليلة ، ويروى ان الجهشياري الف كتابا على نسق الف ليلة وليلة ، واختار فيه اسمارا من الامم ، ومات قبل أن يتمه . »

الكتاب اذن احدث مدرسة بحا نحوها غير اديب واحد ، مثلما فعل المتأدبون بصدد سائفه كليلة ودمنة .

على الرغم من القول بإضافة اقاصيص السندباد الى الكتاب ، فان هذا لا يقدح في وحدته ، وان مؤلفه واحد ، اذ ليس بين ايدي المفردين اي ثبت على صحة ما يقولونه أكاديميا ، ويبقى ان تناغم اجزاء الكتاب ، ووحدة اسلوبه ، ونسقه المؤتلف من الفه إلى يائه ، وطابعه العام المتميز بنكهة الغرابة ، والامتاع ، والجنس ، يؤكد وحدة فلذانه ، واحدية القلم الذي به اشرق على دهور الناس .

ثم ، اية مدعاة إلى نسبته في مصادر مختلفة ، من تراث الشعوب القديمة ، وكل ما فيه يشير الى عروبته ، واسلاميته ؟ اذ لا يتفق عقلا ولا زمنا أن يكون كاتبه قد جمع فيه مزقا ، ونتفا من مختلف آداب العالم ، فأدبه انبحري والبري من مصدر واحد ، بأسلوب متوحد ، مبني على الطرافة والمفارقة ، اعتمد فيه مؤلفه على منطلق فارسي للاغراب ، وان الفرس كانوا آنذاك مصدرا سحريا للمؤلفين العرب ، خاصة في الادب وعلى الاخص القصص ، لما لهم من سابق تاريخ مرتبط بأحداث العالم على مدى امبراطوريتي اليونان والرومان .

نحن اليوم نفعل في معظم ما نكتب من القصص مستمدين من الغرب ما فعله العرب بالنسبة الى الفرس ، وذلك لم يجعل ادبنا الراهن غربيا ، أو فارسيا ، على ان الادب فن ، والفن لغة الحياة والكون لكل البشر . كتب بديع الزمان الهمداني مقاماته بالعربية ، وهو من اصل فارسي فهل تراه صنف لدى تعداد الادباء الا في الصف العربي ؟

وكتب جورج شحادة اللبناني العربي قصصه بالفرنسية ، فهل نعده اديبا عربيا وقد سكن لغة الآخرين ؟

* ● *

أدب البحر قليل في تراث ادبنا العربي ، بالنسبة الى تراث اليونان ، كما ان ادب الرمال قليل لدى ادباء الغرب قاطبة ، وذلك طبيعي . ولولا لمع من شعر امرىء القيس ، وطرفة ، وأدب القرآن الكريم ، وافاق الف ليلة وليلة ، ونسق مقامي من ادب « الحلبي » من اعيان القرن الرابع عشر ، لجاء الادب العربي قاحلا من البحريات وغرائبها .

مؤلف كتاب الف ليلة وليلة ، جسد اصداء الحضارة باستقرارها واغترابها ، موغلا بين الامواج ، مبتعداً عن سكون الصحراء ، مالئا الفراغ بأمتع محتوى ، ولعل البصرة هي التي نلهث بين جفونه . إنه لمن الثابت حسب مجرى حكايات الكتاب ، وفصوله ان المؤلف واسع الخيال ، قوي الذاكرة ، دقيق الملاحظة ، كثير الاسفار ، من سكان الشواطىء ، زاخم الشباب ، خبير بتقاليد الشعوب ، والمجتمعات ، بسير بنوازع النفس البشرية ، واشواق اللحم والدم ، ايام كانت بغداد ، وبعد ان كانت كالمدسة البلورية تجمع ما تفرق من اشعة الشمس ، كجمع بغداد مختلف الامم ، وذوبان الجميع في اطار واحد ، منسوق على حد قولة « بروكلمن » في كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » .

ملامحه العامة

وقعت عند دراستي الف ليلة وليلة ، طبعة صبيح ، ان المؤلف يعي في ذهنه حكايات لها اصول في تراث كثير من الشعوب القديمة ، كما يظهر اللون المصري ، الشامي ، العراقي واضحا في معظم قصص الكتاب ، الى الاكثار من التحدث عن بحار الاهوال ، والجزر الغريبة ، والعفاريت والطلاسم ، والسحر ، والغدر ، والمؤامرات ، والضياع ، واللقاء .

ذلك جميعه صدى لروح العصر ، والمجتمع الذي افرخ فيه ادب الف ليلة وليلة ، وتعبير عن احلام الانسان ورغباته المكبوتة ، ومحاولة لردم الهوة بين الواقع المحروم ، والمؤمل المرتجى ، والتعويض عن السأم والذل ، تخلصاً من طبقة حاكمة مستغلة ، ومن فئة منهارة مهزومة ، الى عالم اللذة ، والاستعلاء ، والاستطالة ولو بالأوهام ... !

ذلك ادب شعب زهد من ثمر الفصحاء ، الى عفوية ادب الشعب ، ومن لغويات المتزمتين الى ادب الحياة المترع بالنعمة ، ومن تحجر ابن البادية ، واسر ابن المدينة ، الى رحاب الانسان المثقف الحر ثقافة انسانية متأملة في الكون ، يجد في هذه اللغة التي مدت رواقها على قارات ثلاث ، والامة التي بسطت نفوذها على سائر بقاع الارض المتمدينة مجالا للاستيحاء ، والبحث عن خيوط لنوله الكبير .

- وقد ظهر لي ايضا أن تأثر الف ليلة وليلة بكتاب كليلة ودمنة واضح ، وذلك في مثل حكاية « الحمار والثور مع صاحب الزرع » جـ ١ ص ٥ ، و جـ ٢ ص ٢٢ و ٣٠ ، و جـ ٤ ص ١٢٦ ، كذلك .
- اللون المصري في مثل صفحات ٦ ، ٦٥ ، ٦٨ ، من الجزء الاول .
- اما اللون العراقي فهو يظهر في اكثر من حكاية واحدة ، وإن كان جاء اقل مما هو مشهور عن الكتاب . نظراً الى نسبة هذا المؤلف الى عصر الرشيد ، وتداعي اسم الكتاب واسم الرشيد . وبغداد التي هي بلد الف ليلة وليلة في كل ذهن لقد أحصيت ما يدور حول الرشيد في الكتاب، فاذا هو نذر يسير لا يتلاءم مع تلك الشهرة الشائعة .
- ولدى تقصي الآثار اليونانية ، فقد وجدتها بينة اللامح في مثل حكاية « حاسب كريم الدين » من الجزء الثالث صفحة ٩٤ ، وذلك عند ذكر الغول الذي هو صدى لسيكلوب « عوليس » بوجه آخر في أوذيسة هومير . كما ان اصداء حروب طروادة كما وردت في الالياذة ، تبدو في جـ ٣ ص ٦٤ .
- الكتاب ممهور بالطابع الاسلامي في إطاره العام ، غير متخل عن اللون المسيحي كما في جـ ١ ص ١٣ .
- والمسحة الهندية تلوح في جـ ١ ص ٣ . و جـ ٣ ص ١٠٤ .
- على ان الصفة الشامية ، والوجه اليهودي ، يلوحان في جـ ٣ ص ١٠ . و ١٦ و ٢٧٤ .
- ثم ان الباحث يجد النماعات تشبه ما يجده في رسالة الغفران للمعري ، نلخصها في مثل قصة « بلوقيا » والحية جـ ٣ ص ٣٦ .
- كما تظهر معرفة المؤلف بمواقع بلدان العالم القصي مثل القوقاز ، وسيبيريا وسواهما ، مما يشير الى شيوع الدراسات الجغرافية آنذاك ،

وأنساع رقعة العالم الاسلامي ؛ الذي اصطبغ الكتاب بلونه .

- والمدهش حقا ، المرهص بما يشبه النبوءة ؛ أن الكتاب يتحدث عن حروب تلتفت الى حروبنا اليوم ؛ إذ استخدم فيها سلاح لا يختلف عن سلاح عصرنا الذري، والصاروخي، حيث يلوح هذا في جـ ٣ ص ٧٢ .

- والجدير بالملاحظة أن في الكتاب لفتات اشتراكية سبقت الماركسية بمئات السنين ، هذا ليس عجيباً في عصور الفقر والحرمان ، وبعد ان عرف الناس اشتراكية « افلاطون » في الجمهورية ، ومن بعده « مزدك » الفارسي

- الجو العام المسيطر على الكتاب هو جو : المأكل ، المشرب ، الملبس ، المسكن ، المتع الجنسية بمختلف ضروبها ، وملاطف حرباتها، ثم الغرابة ، والمفاجأة ، والمصادفة .

أسلوب الكتاب :

- يجنح اسلوب الف ليلة وليلة إلى البساطة في التعبير ، والوضوح ، والركة ، والعامية .

- كما يرسم ثقافة مؤلفه الادبية ، والتاريخية ، والجغرافية ، منطلقة من موهبة غنية .

- يكثر من ترديد بعض الحكايات ، والحوادث ، والصور ، والعبارات .

- لا يخلو من السقطات التاريخية مثل ذكره النابغة الذبياني في عهد عبدالملك بن مروان ؛ جـ ٣ ص ١٢٣ ولعل الناسخ خلط بين النابغة الجاهلي ، ونابغة من النوابغ الاسلاميين .

- يصل بعض القصص فيه الى قمة الروعة ؛ من حيث إحكام الحبكة ، وتآزم العقدة ، ولطف الحل ، كما في الجزء الثاني صفحة ٢٥٨ وذلك عند حكاية « فرس الآبنوس » ومثلها حكاية « عبدالله فاضل » عامل البصرة واخويه جـ ٤ ص ٢٦٦ .

ولا تسل عن التفكك ، والسذاجة ، وضعف النسج ، في كثير من القصص ، غير ناسين ان المجموعة تتميز بالخيال الرحب ، المثير للاشواق المهور بالغرابة ، الموشح بالمحال ، منمازاً بطائر الرخ ، وبساط الريح ، والخاتم السحري (لبّيك) والقمقم السليماني ، موطناً لاروع اكتشاف في عصرنا الحاضر الذي لما يحقق كل صور الف ليلة وليلة في الواقع ، واوهامه المذاحة الجميلة ، عدا عن جلائه وجع الانسان من كونه ، ومختلف طبقات مجتمعه ، في مجاهفها ، ومتارفها ، صعودها وهبوطها .

اثره في الفن العالمي والعربي

تاثر بكتاب الف ليلة وليلة كثيرون من ادباء الغرب وفنانيه ، وظهرت الاقتباسات منه في القصص ، والمسرحيات ، والافلام ، والشعر ، والمعارض اللاهية ، مثل ذلك إيحاؤه لازاميل النحاتين ، وريشات الرسامين ، وتهاويل الراقصين ، وحكايات الاطفال ، واصبحت ليالي الف ليلة وليلة عنوانا على ظلال الشرق ، واطيافه خيالا ، وعذوبة ، وسحراً ، إلى مظهر للترف ، والازمات ، والفواجع ، والمباهج . جميعها ذات منازع انسانية في الصميم من مضامير الكائن البشري .

قد تخيبنا اقاصيص الكتاب فلا تتوفر في معظمها الشروط التي ترسمها القصة الحديثة. ومتى كانت هذه الشروط مقياساً نهائياً للقصص الخلاب ؟ ومتى كان الفنان الاصيل ملزماً بترسم الخطوط ، والقيود التي يفرضها النقاد او يفترضونها ؟ وهم إنما قعدوا ورسموا منطلقين من آثار الفنانين المبدعين انذين هم وحدهم يملكون المقاييس .

ثم هل في القصص العالمي ما يمنحنا المتعة، والنقلة من الواقع الى عالم الغبطة كالف ليلة وليلة ؟

يعتبر « ولز » ان كتاب الف ليلة وليلة اعجب واطرب قصص البشرية ، كذلك « فولتير » يعلن انه قرأ الكتاب مرات ، وانه لم يتعلم كتابة القصة إلا منه ، على أن اقاصيص « اندرسن » وجزيرة « بيكون » السعيدة ، وفردوس «ملتون» حملت اطياب الف ليلة وليلة .

وممن قبسوا منه ، وعنه « تشوسر » في تابعه ، و « ديكاميرون » في ايامه العشرة و « بوكاتشو » و « فوليفر » وكثير من كتاب الرحلات ، إلى جانب الصحف ، والحجاج ، والتجار ، والمرسلين المبشرين ، والصليبيين ، إذ انهمروا عليه ترجمة ، وإذاعة ، واقتباساً ، ودراسة ، وقد عنيت المطابع بإصدار اغلى ، واجمل النسخ التي بلغت اثماناً خيالية ، نظراً لصورها ، وتنسيقها ، وإخراجها الرائع .

وقد وقعت على نسخ منه بالفرنسية والانجليزية ، والالمانية فاذا جميعها مظهر لروعة الطبع والاخراج والتصوير .

كثيرة هي الكتب التي سعد بها اطفال اوربا والعالم ، وهل من طفل في الدنيا يجهل حكايات السندباد ، وعلاء الدين ، وعلي بابا ؟

بيد ان الفضل في نقل هذا السفر النفيس الى الغرب يعود الى بعض المشاهير من طراز « جان انطوان غلان الفرنسي » Y. A. Galland الذي قدمه في اثني عشر مجلدا على مجرى القرن الثامن عشر ، كما قبس منه الانجليزي « إدورد وليم لاين E. W. Lane » ثلاثة مجلدات في القرن التاسع عشر ، وريتشارد رد بورتون R. Burten نشره في عشرة اجزاء في القرن التاسع عشر ايضا .

يضاف الى هؤلاء ما تمادى منه فلذات ، واساليب ، ومنطلقات ادبية وفنية لدى ادباء وفناني العرب والشرقيين .

إسلامية الكتاب :

كتبت اقاصيص الف ليلة وليلة بلغة عربية ، في حضن الاسلام .

الاديب الفاطمي « يوسف بن اسماعيل » الف سيرة عنترة وانطلق بها من الواقع الى آفاق الاسطرة ، مواكبا صورا جليلة من الالياذة والاوذيسة ، والماهابهاراته والراميانا . والانيادة.

لعل اديبا من طراز يوسف بن اسماعيل الف كتاب الف ليلة وليلة في المناخ العربي والاسلامي ، فالخيال في سيرة عنترة ، واخوات لها من نسق « الملك سيف » و « البهلوان » ليس غريبا عن الخيال في قصص الف ليلة وليلة وان كانت الموضوعات على تباين .

عنترة الاسطوري تزوج امراة من الجن فولدت له « الفضبان » وهذا كان يضرب بعموده الجبل فيشقه نصفين ، مثلما فجر « چوف » في الانيادة الجبل فجرت رياح كالخيول مطلقة الاعنة ، وكذلك فإن الزواج بالجنيات في الف ليلة وليلة كثير ، ومثله تعرف الفرسان بعناصر الطبيعة ، وقريب منه حب « نوسكا » جنية البحر البطل عوليس .

كذلك فان المناعم والمتارف لدى « السيرة » والف ليلة وليلة متشابهة ، وربما كان اختفاء اسم المؤلف سببه ان الكتاب يحشد كثيراً من صور الوثنيات ، واللذائذ الحسية ، والدعارة الجنسية . تلك التي تلذ القارىء بمقدار ما تتجافى عن الصيانة الاسلامية ، **ووقار العلماء** ؛ لذا عمد المؤلف الى الانطلاق من موضوع نسبه الى الفرس . ثم انساح في آفاق خياله .

الادب الشعبي البطولي جاء تعويضا عن فقدان البطل ؛ او المثل الاعلى ، وملا لفراغ الحرمان ، وصدى للاحلام المستفيضة ، وإشباعا لنهم ادبي يطلب صاحبه الابداع والخروج بجديد على خط التقليد الملتزم ، الجاف ؛ في عصر فسدت امور السياسة ، وتفرقت اجزاء الامبراطورية العباسية مزقا ، وتعرضت لهجمات مرعبات من مختلف الجهات .

الفاظ الف ليلة وليلة ، جمله ، صوره ، اصطلاحاته ؛ فواتحه ، معارضه ، خواتمه ، من نسق واحد .

الدعوات ، التمنيات ، العصبية الاسلامية، اللعب بالزمن ، تخطي حدود الامكنة ، ازدهار عالم الكتاب بالمتارف ، وانفجاعه بالمآسي ؛ كل ذلك منسوق مرتسم على خارطة الجنة والنار واصداء البعث والقيامة ، لدى القرآن الكريم ، كذلك فإنه لهاث المجتمعات والمدن والتقاليد والاخلاق . كل ذلك ممهور بالطابع العربي الاسلامي ؛ بعيداً عن اجواء مدن الفرس وسواها، بعداً قاصيا .

اذا كانت الاسماء في بعض الاحيان اجنبية، فان المحتوى عربي اسلامي . ذلك لا ينقص من قدر الكتاب او يزيده ، فحقيقة مقداره انه وجد ، وانه كتاب عالمي .

معظم متارفه ومتعه صدى لمتارف ومناعم الجنة .

اكثر مظاهر العذاب فيه من اجواء جهنم ، والجانبان من مرسومات القرآن الكريم .

- السملاة . عبقر ، وبار ، الشيصبان ، الغول ؛ **صور من الجاهلية .**
- الجحيم . الجنة ، الزقوم، السندس الاخضر، الانهار ، العسل ، من ادب الاسلام .
- صور المقامات (الهمذاني ، الحريري ، الزمخشري) تلتفت إليه .
- خيال رسالة الغفران له إليه خيط .

ـ أصداء جمهورية افلاطون وما ترامى الى المسلمين من تراث الامم الاسطوري ، وبعض الصور الفلسفية في خيال الاندلسيين والمشارقة مما نشتم عبيره فيه ، وكل ذلك لعب دوره في تكوين جسد الف ليلة وليلة .

إنه ادب الكادحين البائسين ، يتحدى ادب الارستوقراطية المستلين لظلال القصور ، واسماع السادة المتسلطين

هو ادب الحياة الصادق ، فوق ادب الصنعة المواربة ، يعرض صوراً لقلب الانسان واحلامه ، ونوازعه ، على مشارف ابناء الدهور .

جسد الكتاب :

استهل المؤلف كتابه بتقليد جرى عليه الاسلاميون ؛ فبسمل ، وصلعم ، ودعا للمؤمنين، ثم اشار الى غرضه من تاليف الكتاب ؛ وهو الماثل في العظة والعبرة ، بسرده الاخبار ؛ والحكايات عن احوال الافراد ، والشعوب .

موضوع العبرة ، وبيان عجيب صنع الله في خلقه ، درج عليه مؤلفو الاسلام ، وعلى الاخص شيخ مفكريهم وادبائهم ، الجاحظ .

« حكي والله اعلم ، انه كان فيما مضى من قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان ، ملك من ملوك ساسان ... »

ـ « والله اعلم » تقليد إسلامي شائع .

ـ اما السجع فهو من التزامات المتاخرين، بدءاً بابن العميد ، فالصاحب بن عباد ، فالهمذاني ومن جاؤوا بعدهم .

ـ « قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان » عبارة شاعت في مأثور الادب الشعبي .

ـ « ملك من ملوك ساسان » تحديد نسبة الكتاب الى مرجع فارسي ، ومن هنا توهم المتوهمون ان مجرد نسبة الملك الى اصل اجنبي يستلزم ان يكون الكتاب كما نسب الناسب ، ولم يدر في خلد الواهمين انها طريقة للكتابة ، ورغبة شائعة ومن هنا اضطرب شان الجهشياري من القرن العاشر ، كما حدد بعضهم زمن ظهوره في مطالع القرن السادس عشر ، ،واخر دولة المماليك .

الكتاب لا يعين زمن ظهوره ، اما حوادثه فتبدأ في عهد الساسانيين ، ولا تحديد للزمن الذي توقفت فيه عن الجري ، وقد يخلط الكتاب اشياء التاريخ خلطاً فلا يستبين صوابه ، فما العمل ؟

العبارة وحدها هي التي تشير الى الزمان والمكان كما اسلفنا .

العبارة : كلمات فصيحة ، الى عامية ، سوقية ؛ تسلك سبيل السجع ، والتكرار احياناً وتجري على التقليد الاسلامي في البدء والختام ، وفيها من الدعاء ، والاستغفار ، اشياء عدة ، كما يكثر فيها الالحاح على الفاظ : العدل ، الظلم ، الخير، الشر ، الخيانة ، الوفاء ، الحيلة ، الياس ، المتع، البائس ، السحر ، الطلاسم .

اما التركيب الذي يدور في إطار تلك المباني فهو الجنس بكل اشواقه ، ومفاجآته ، ومكائده .

ذلك جميعه ملحوظ منذ عصر الدويلات شائع زاخر في عصور سموها عصور الانحطاط ، حتى آخر عهد المماليك .

ـ لا يبعد ان تكون كتب القصص الشعبي لهثت في آفاق عصر الصليبيين ، وحوله ،حيث شاع فكر المغامرة ، والبطولة ، طلباً للمثال النادر ، وانتظاراً المخلص ، وتعويضاً عن واقع منسحق، او تسلية للناس بعد أن شاع خيال الظل لابن دانيال .

ـ ابداع القصص سنتة درجت عليها الشعوب ، ساعة تهرب النفوس من الواقع الملموس ؛ الى داخل النفس ، فينطلق الخيال ، وتلتفت الذاكرة ، شانهم في ذلك شأن الذين الزمتهم الطبيعة القاسية بزمهريرها ، وثلوجها أن يوغلوا في سراديب الذات ، وينطلقون في آفاق الخيال ، ليبدعوا في القص .

ـ ثم إن الجمع ، والاقتباس ، والاختراع ، ثلاثة وجوه تظل من جسد الف ليلة وليلة ولكنها بما فيها من جانب الاختراع وحده ، مدينة بخلودها ، وروعة بنيانها ، واجمل ما فيها قصة « عبدالله فاضل » .

ـ تلك الاسماء : شهريار ، شهرزاد ، دنيازاد لموسيقاها ، ولانتمائها الى لغة تداخلت في ادب العرب منذ عهد الامويين ، واستطالت في عهد العباسيين ؛ أصبحت في عهد الدويلات تجنح نحو الذكرى من جهة ، ونحو التركز من اخرى ، مثلما دفعت العربية بآلاف الكلمات في بحيرة تلك اللغة ، فاغنتها ؛ ونسبتها .

- معظم ابطال تلك الاقاصيص فرسان ، تتشوق النفوس الى الفرح بمآتيهم ، وتترقب انتصاراتهم .

- العبيد والجواري ، والاماء ،يلعبون دوراً هاماً في مجرى حوادث الكتاب وأخصها : الغدر العشق ، والخدمة ، والفتك ، والسحر ؛ شأنهم قديما كشانهم اليوم ، فالاسود يختزن في جسده حرور شمسه ، فهو لذلك مقصد المشتهيات .

- العفاريت عنصر هام من عناصر الف ليلة وليلة ، فهم رمز الزمان الذي يتبدل ؛ ويبدل وهم مفاتيح الخرافة والاسطورة ، إذ أن العاجز عن وعي وجوده ، يلجأ الى كل مغيّب وخفي ليحلّ عقد حياته .

- الحقد ومظهره الغضب والانتقام ، حل شائع في الكتاب .

- الخلاص خاتمة مبهجة لاقاصيص الف ليلة وليلة ، تاكيداً على انها من بنات الاختراع مقصورة على مد الاهواء ، والنوازع .

- الموت وجه راعب ، يترصد تلك النفوس التي تتحرك شخوصها مع مسرح الكتاب ، وهو « هادم اللذات ومفرق الجماعات » وكثيراً ما ينتهي لتولد منه حياة جديدة .

- طائر الرخ ، الجواهر الكريمة ، الاماكن الغريبة ،الجنيات ، التحكم بالزمان من روائعه السحرية .

● ✱ ●

« الف ليلة وليلة » مجموعة اقاصيص خيالية ، بعضها يلهث فيه الواقع ، مؤلفها واحد غير معروف ، وزمن ظهورها لا يبتعد عن فلك المماليك والصليبيين ، لغتها بين العامية والفصحى ، رصّعت بشعر مخترع ، ومروي ، قد لا يلتزم الشعر المخترع اشياء النحو والعروض شاعت في ثناياها مقابسات من اقاصيص الشعوب وملاحمها ، بدات بتقليد درجت عليه : « بلغني ايها الملك السعيد ... » وانهت كل حكاية ب : « وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . » تلعب خيانة المراة فيها الدور الاهم . الى جانب شكوك الرجل وقسوته ، وتنتهي بتفاهم شهريار وشهرزاد .

الكتاب عربي إسلامي تميز بالقدرة على الامتاع ، وتخطي الزمان والمكان ، مؤلفه موهوب خصيب ، ومثقف اريب ، وثائر على اوضاع المتسلطين ، منهمر على اشياء التعب والمحرومين

لم نجر اقاصيص الكتاب على النسق الفني للقصة الحديثة التي شاعت في الغرب منذ القرن الثامن عشر ، واستعملت في التاسع عشر ، ولكنها تبقى رغم ذلك نموذجاً عالمياً للقصص الرائع ، لا تبلى ملاطفه ، وممتعاته على توالي الدهور .

★

المراجـــع

١ ـ الف ليلة وليلة ، مجلدات ، طبع صبيح ـ القاهرة .
٢ ـ الف ليلة وليلة : سهير القلماوي .
٣ ـ معجم المطبوعات العربية : خليل سركيس .
٤ ـ قصصنا الشعبي : دكتور فؤاد علي .
٥ ـ من احوال الادب : احمد حسن الزيات .
٦ ـ القصة في الادب العربي : محمد يوسف نجم .
٧ ـ فن القصص : محمود تيمور .
٨ ـ دائرة معارف البستاني . ف . الفرام .
٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية . E. D. l'Islam
١٠ ـ قصة الادب في العالم : للدكتورين احمد امين وزكي محمود .
١١ ـ الف ليلة وليلة : ميخائيل عواد ـ بغداد .
١٢ ـ الف ليلة وليلة : لفاروق سعد ـ الاهلية ـ بيروت .
١٣ ـ الف ليلة وليلة : القاهرة ـ الدراسات الادبية .
١٤ ـ الف ليلة وليلة : تحقيق المدوي ـ بولاق .
١٥ ـ الف ليلة وليلة : المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت .

WWW.ATTAWEEL.COM